أمكانية الأستفادة من جماليات تصاميم التراث العمراني بجدة التاريخية كأرث حضاري وفني لإستحداث مشغولات فنية بالفسيفساء الطبيعي والصناعي

إعداد :

فتون فؤاد عبدالقادر فيومي

أستاذ مشارك الأشغال الفنية قسم الرسم والفنون

كلية التصاميم والفنون

جدة

٢٠١٧م – ١٤٣٩هجري

خلفية المشكلة ..

يعتبر البناء في مدينة جدة قديماً قصة من قصص فنون العمارة والتي تسعى الهيئات والوزارات للمحافظة عليها كون مدينة "جدة القديمة" تعتبر متحف مفتوح لكل زائر لهذه المدينه ، فهي تتمتع بثراء في تراثها الإنساني تجعل منها متحفاً معمارياً فريداً يحمل عناصر جمالية مميزة في البناء يلمحها ويتذوق جمالها كل زائر لمنطقة جدة التاريخية، فهي تنقل لنا محصلة حضارات مختلطة لمجتمع جداوي عريق يتمتع أبناؤه ببراعة الصنعة ومهارات معمارية فريدة وحس فني وذوقي رفيع ،ذلك أن تصميم البيت الجداوي القديم بما يحملة من الأحجار المنقبية المتراصة بمهارة ونقوش وعقود متميزة في رواشينها وأبوابها الخشبية والزخرفية يوحي كل ذلك أنك أمام لوحة فنية متكاملة، كما تمثل جده موطناً من مواطن الثراء الفني لأشكال وعناصر الزخارف الحجازية ، فمدينة جدة وامتداد لتاريخها الطويل عبر الأحقاب والعصور وبمجرد مرور اسمها يتبادر إلى الأذهان الكثير من الأسئلة عن تاريخها الإنساني والاجتماعي منذ نزول أم البشر حواء على أراضيها كما تشير بذلك الروايات التاريخية.

كما ذكرت الدراسات التاريخية أن منطقة جدة قديماً والمعروفة بجدة التاريخية حالياً قد سُكنت من بداية العصور الحجرية ،" فلقد تم الكشف عن بعض الآثار والكتابات الثمودية في مواقع مختلفة بالمنطقة،كما أن بعض من علماء الآثار والمؤرخين يرجع تأسيسها لقبيلة بني قضاعة الذين سكنوها بعد أنهيار سد مأرب عام ١١٥ ق.م"
http://www.jeddah

فقد سكنوها وعمروها ، كما ذُ كر أن سبب تسميتها هو نسبة لي أحد أبناء قبيلة قضاعة وهو (جدة) بن جرم بن ريان بن حلوان بن عمران بن إسحاق بن قضاعة، ويعود نسبهم إلى الجد التاسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم،وقد أنضم الى قبيلة قضاعة بالسكن في جدة مجموعة من الصيادبين الذين قصدوا البحر الأحمر للارتزاق وتوفير لقمة عيش لهم ، وقد ذكر في عدد من مصادر التاريخية أن جدة يعود لها تاريخ حضاري الى ما قبل الإسكندر الأكبر الذي زارها مابين ٣٢٣و٣٥٦ق.م
كما ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه حينما رمى البحر بسفينة إلى جُدة ذهبت قريش وابتاعت خشبها وذلك بغرض إعادة بناء الكعبة المشرفة وكان ذلك في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بقليل،وتذكر بعض المصادر أيضًا قصة هروب صفوان بن أمية من مكة المكرمة إلى جُدة يوم الفتح ليركب منها البحر إلى اليمن ،إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم أَمَّنَهُ فعاد إلى مكة ،هذه القصص وغيرها كثر تثُبِتُ أن علاقة جُدة بمكة موغلة في القدم، وتبينّ أن جُدة كانت دومًا ميناءً للبلدالحرام، وهي علاقة وثقتها المصادر التاريخية القديمة والحديثة.

وعند بداية أنتشار الإسلام في الجزيرة العربية أصبحت مدينة جدة جزء من التاريخ الأسلامي لكونها بوابة الحرمين الشريفين من جهة البحر، ففي فترة العهد النبوي ولما كان لهذة القرية من أهمية فقد عين رسول الله علية الصلاة والسلام النوفل أبن

الحارث والياً عليها ، فأصبحت منذ أختيار "الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ٢٥هـ ميناء رئيسيا لمكة المكرمة للحجاج والحج والعمرة والتجارة"
http://www.jeddah

ومنذ ذلك الوقت دخلت مدينة جدة بانطلاق نحو المستقبل حيث أصبحت جدة للتجارة والحجيج وأستقبالهم فتوافد عليها الخير من كل مكان وكان هذا التاريخ بداية الازدهار الحقيقي لهذة المدينة ، وسميت في ذاك الوقت باسم بلد القناصل بسبب موقعها الهام في خارطة العالم الإسلامي كمدخل للحرمين الشريفين، ودهليزها القديم باعتبارها المدخل البحري الوحيد للبقاع المقدسة، فيها يفد الزوار والمعتمرون والحجاج ومنهم من الحرفيين حيث يطيب لهم المقام فيمارس بعضهم الارتزاق بها مع طول الرحلة الدينية كما كان يطلق على ذلك مقولة المثل الشائع (حج وبيع سبح)، أي بوجود الفرصة سانحة للارتزاق ظرفاً ووقتاً.

وقد عانت جدة فترة كبيرة من تذبذب بين مرحلة العصور العباسية والفاطمية ، وأبتداء من ٣٥٨هـ بنى الخليفة الفاطمي في ذلك الوقت أول سوراً حول جدة تحصيناً لها وخوفاً عليها من العباسيين ،لم تدخل منطقة جدة في ذلك الوقت تبعيه للعهد الفاطمي الأ بعد سقوط الدولة في عهد المعزالدين با الفاطمي دخلت جدة مرحلة جديدة ، وهي بداية بناء السور والذي كان له بابان فقط باب مكة وباب (الفرضه) وهو باب الميناء ،ثم تغير باب الفرضه في العهد المملوكي من منطقة حارة اليمن الى منطقة حارة البحر،أضيف بعدها بابان باب الروما في الشمال وباب المدبغة في الجنوب بحارة المظلوم ،وفي عهد المماليك تحول ميناء جدة لي مرفأ عالمي ، وتسبب ازدهار الميناء بزيادة مطمع البرتغاليين في البحر الاحمر ورغبتهم في السيطرة على الهيمنة الاسلامية على التجارة الشرقية وفي عام ٩١١هـ أصبح السور المحيط بجدة متصدع الجدران وأجزاء منه منهارة ،وعندما علم السلطان المملوكي مطمع ملك البرتغال ونواياه أرسل القائد حسين كردي وجهز معه عسكرا من الأتراك والمغاربة لتجديد وتوسيع السور وبناءه تحصيننا لي جده من هجمات البرتغاليين المتوقعه ،وفي ٩٤٨هـ هاجم البرتغاليين جدة ولكن هوجموا من أهل جدة بجيش جرار هزم البرتغاليين وحافظ اهل جدة على مدينتهم الحبيبة .

ظلت مدينة جدة تحت حكم الخلافة الأموية ثم العباسية ثم الأيوبية ثم المماليك،فالعصر المملوكي بسط نفوذه على مدينة جدة وعمل على تأمين طرق الحجاج والمعتمرين والتجارة كما كانوا يسعون لحماية الحرمين، وقد ولى السلطان المملوكي حاكماً لمنطقة جدة سمي نائب جدة وقد كان منزلة الذي يقيم فيه مقابل الميناء ليشرف على حركتها وأمنها، وتم فرض إجراءات عديدة على الميناء الخاص بجدة في ذلك الوقت منها الرسوم الجمركية لانعاش الحركة التجارية فيها، وقد ظلت جدة مستقلة في الحكم في القرن الخامس والسادس عشر الميلادي .

وفي عام ٩٣١هـ أعُلن الشريف بركات حاكم الحجاز في ذلك الوقت ولائه للحكم العثماني ، ومنذ ذلك الوقت تعرضت جدة لغارات القراصنة الهولنديين و البرتغال .

وفي العهد العثماني تميزت مدينة جدة بالازدهار الأقتصادي السياسي فقد أصبح لها والياً وأدارة وحكومة تراعي مصالحها ومحتسب يهتم بالشئون البلدية ودخلت العهد الدبلوماسي فأصبحت تتوافد اليها البعثات الدبلوماسية الى جدة كما شهدت تلك الفترة أزدهاراً علمياً فبنيت المساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس، وفي العهد الهاشمي شيد باب مكة وباب البنط كما تطور البناء العمراني بشكل ملحوظ .

احاط بجدة عدة أساوار لحمايتها وقد تخلل السور (٧) بوابات تقفل بعد صلاة العشاء وتفتح عند أذان باليوم التالي وبهذا كان أهل جدة على علم بأي غريب ممكن أن يتخلل منطقتهم ، وأستمر هذا الوضع حتي بداية العهد السعودي.

وفي اليوم السابع من شهر جماد الأخر ١٣٤٤هجرياً فتحت جدة أبوابها مرحبةً سلماً للملك عبدالعزيز بعد مغادرة الشريف العلي أبن الحسين بحراً وكان في أستقبال الملك عبدالعزيز أعيان جدة ووجهاء وأهلها لتصبح جدة من كيان المملكة العربية السعودية منذ ذلك الحين .

ومنذ ذلك الحين تنعم جدة بالأستقرار والهدوء وألاطمئنان فكانت مطمع للجميع ليتوفدوا عليها للعيش فيها وطلب الرزق فيها وأشتغل أغلب أهل جدة بالبحر منها : أستقبال الحجاج والمعتمرين والتجارة البحرية والنجارة والخرازة والحدادة والبناء للمباني والبيوت السكنية ،ومن الملاحظ أن تاريخ جدة الذي تم أستعراضه كان له آثر كبير على كل شي بجده المباني والأعمال والعادات والتقاليد والملابس والأكلات .....الخ

- هل تختلف طريقة البناء بين مدينة جدة في منطقة الحجاز وبين المناطق المجاورة من حيث مواد البناء والتفصيل الداخلي والشكل الخارجي؟

البناء كان يختلف بطبيعة الظروف البيئية والجغرافية وارتباطه بخصوصية المكان فمادة البناء الأساسية في جدة حيث ساحل البحر تختلف عنها في مكة حيث البيئة الجبلية والصخرية ففي جدة مثلاً تستخدم (الأحجار المنقبية)المستخرجة من ساحل البحر أي من ذات البيئة نفسها ولذلك فهي الأقدر والأقرب على التكيف مع بيئتها وظروفها وفي جدة أيضاً تلاحظ ارتفاعاً في الطوابق لمقاومة حرارة الجو المرتفعةوكنت تلاحظ أيضاً مفردات عمرانية تراعي الخصوصية المكانية ولا تجدها في بيئات أخرى مثل (الخارجة) التي هي بلكونة الماضي عبارة عن غرفة غير مسقوفة تبنى جوانبها بالحجر الآجر ليسمح بمرور الهواء والضوء وغيرها من مفردات البناء الداخلية والخارجية التي تعبر عن مهنة نبعت من جبروت الحاجة الى الشيء وليس استيرادا صامتاً لثقافات خارجية لا تستوعب الحاجات وظروف المجتمع وعاداته، وقد كانت البيوت قديماً متقاربة جداً وأحياناً كانت متلاصقة والشوارع ضيقة وذلك حتى يتوفر مناطق بها ظل لتبريد المكان للجالس في هذه

الطرقات (الأزقه) ، كما كان للبيت الجداوي القديم واجهة واحدة أو وجهتين وأحياناً يكون لها ثلاث واجهات ، ومساحة الواجهة هي التي تحكم عدد الرواشين والشبابيك التي من المفترض أن تكون في كل جهة ،وقد كانت الرواشين قديماً لها عدة أستخدامات حيث أنها تمرر الهواء لداخل البيت كما هيا متنفس للسيدات للرؤية كما كانوا يضعون الماء بداخل أناء يطلق علية الجداويين الشربه(قلل) وترفع على قاعدة معدنية تسمى "المرفع " والغرض منه تبريد الماء للشرب والبعض كان يضع بداخل الروشان الزرع والريحان والورد البلدي بداخل فخار أو بداخل حوض من المعدن يطلق عليه الجداويين قديماً التوتوه وذلك لانعاش أجواء البيت أو المجلس، وقد أكدت العديد من الدراسات أن العمارة الجداوية وأسس البناء لديهم تتشابهه الى حداً ما مع أسس البناء المعاصر رغم اختلاف الأمكانيات ، ورغم بساطة المعلم الذي يبني البيت ويطلق علية الجداويين أسم (اليابا) الى أنه كان يبدع فنياً في تصميمه للمباني ونقوشها وخطوطها العربية وزخارفها النباتية والهندسية ، مستخدما مأمكن لتنفيذ تلك الفنون على واجهات المباني وبداخل المساجد .

وقد أشار ابن جبير وابن بطوطة" في رحلتيهما إلى أن المدينة ذات طراز معماري فارسي عندما زاراها،وقد قال زائر إنجليزي لجدة قبل قرابة قرن من الزمان في وصفه لمباني جده:لقد كان الفن ليس مجرد زينة يتفاخر بها الأغنياء،ولكنه عصب حياة،وعنصر هام لا غنى عنه في نسيجها الإنساني وبائها الحضاري،ولا شك أن ظواهر هذا الفن الباقية في بيوتها والمتصلة في حاضرها،الممتدة إلى مظلات مستقبلها لدليل عميق الجذور على حقيقة جماليات تصاميم المباني بجدة التريخية والأرث الحضاري والأنساني بهذا التراث". وفقاً لدراسة(الطرابلسي، ٢٠٠٦م)

ومن أجمل البيوت بجدة القديمة بيت كان يطلق علية بيت "فرنسا" يقع بمنطقة قريبة من مسجد الباشا في حارة الشام وهو موقع للقنصلية الفرنسية بذلك الوقت فقد كان بيتا مميزاً لأن بناه أختلف عن مباني جده في تلك الفترة فهو الوحيد المبني بحجر كحلي اللون وقد كانت تحيط بهِ مساحات وبلكونات قمة في الجمال والأبداع الفني المعماري .
ومن أشهر الذين أشتغلوا بالبناء بجده قديماً . . خليل عليمي ،عبد الوهاب نعمة الله ، حسن دخنه ، سالم بقسماطى ، جميل عبده ، جميل شعراوي ،عبد الوهاب شعراوي ، أحمد تكروني ، وعيسى عبد العاطي ، وقد كان من كبار البنائيين في ذلك الوقت الشيخ / محمد سعيد نعمة الله.

أشهر المباني بجدة التاريخية :

- بيت نصيف وبيت الجمجوم بحارة اليمن.
- بيت باعشن وبيت قابل ومسجد الشافعي بحارة المظلوم.
- بيت باناجة وبيت الزاهد بحارة الشام .

ومازالت هذة البيوت باقية الى يومنا هذا وهي لاتزال بحالة جيدة للان لمتانة البناء رغم مرور سنين عليها .

وقد ذكر البشاري أن"جدة محصنة عامرة آهلها،أهل تجارات ويسار،خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر وبها جامع سري،غير أنهم في تعب من الماء مع أن فيها بركاً كثيرة ويحمل إليهم الماء من البعد قد غلب عليها الفرس،لهم بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووضعها حسن،شديدة الحر جداً."وفقاً لدراسة(البشاري ،١٩٩١م) وقد وصفت جدة من قبل العديد من المؤرخين بانها مدينة متحضرة بها الخير الكثير مبانيها جميلة وعالية تكثر بها التجارة وأهلها كرما الطبع يستقبلون ضيوف الحرمين بترحاب وود.

وبهذا نستنتج أن بيوت جدة القديمة ماهي الأ محصلة لتاريخ حضارات وثقافات لشعوب وأمم سابقة لها آثارها وبصماتها على فن العمارة بجدة القديمة ، وهي نافذة يتعرف منها الأجيال الحالية والقادمة عن ذكرى وملامح لتاريخ حياة أباءهم وأجدادهم وكل من سبقهم في تلك المنطقة التي تحكى ذكريات لطريقة حياة وتفكير وخصوصية في ملامح البيت الجداوي القديم فالبيوت بجدة القديمة تصف لنا كيف تغلب المعماري القديم على ظروفه البيئية القاسية ببراعة فنان يحمل جماليات نتيجة أرث حضاري كبير للخلافات الاسلامية المتلاحقة كالأموية والعباسية والأيوبية والمماليك والعثمانيين الأتراك، كذلك التاثر الواضح من حضارات البلاد الاسلامية التي كانت تفد الى جدة للحج والعمرة مصر والشام والمغرب وتركيا وتونس وبخارى وتركستان وكل المناطق الأسلامية الأخرى، كل ماسبق كان لة أثر واضح في تصاميم وجماليات المباني التراثية بجدة التاريخية والتي مازال الكثير منها متماسك حتى يومنا هذا لينقلنا الى ماضي لزمن جميل لأهل تلك المنطقة بعاداتهم وتقاليدهم وحرفهم وفنونهم رغم أنهم هجروا السكن بتلك المنطقة .

ومن هنا ظهرت الحاجة الى ضرورة العودة للمحافظة على هذا التراث الحضاري والعمراني لمنطقة جدة من خلال الأستفادة من تصاميم وواجهات المباني بجدة التاريخية لانتاج مشغولات فنية معاصرة تحافظ على جماليات هذا الموروث التاريخي للمحافظة علية من الأندثار وتعريف الأجيال القادمة بتاريخ وأرث جدة الحضاري ، والذي تم أعتماده مؤخراً في منظمة اليونسكو ٢٠١٤م في قائمة التراث العمراني العالمي.

مشكلة البحث ..

تتلخص مشكلة البحث في التساؤول التالي ..

أمكانية الأستفادة من جماليات تصميم التراث العمراني بجدة التاريخية كأرث حضاري وفني كمدخل لإستحداث مشغولات فنية بالفسيفساء الطبيعي والصناعي لتوثيق هذا التراث عالمياً ومحلياً .

هدف البحث :

يهدف البحث الى دراسة تصاميم المباني التاريخية التراثية مدينة جدة القديمة ومدى امكانية الأستفادة من العناصر والمفردات التشكيلية الموجودة في تلك التصاميم واعادة صياغتها من خلال تنفيذ لوحات فنية بخامة الفسيفساء الطبيعي والصناعي بهدف توثيق تراث المنطقة التاريخية بجدة محلياً وعالمياً .

كما يهدف الى تسليط الضوء على ملامح التراث العمراني الجداوي الأصيل ومايتمتع به من ثراء فني ومعالم تاريخية وإسلامية أثرت بحضارة منطقة جدة القديمة .

أهمية البحث :

1- أظهار جماليات التراث بمنطقة جدة القديمة للعالم كله والمتمثل في تصاميم المباني العمرانية .
2- أقامة المعارض الدائمة والمتاحف الفنية ،للتعريف بجماليات تصاميم المباني التاريخية بجدة القديمة والتي بدأت جدة تفقد الكثير منها .
3- أنتاج لوحات ومجسمات تذكارية تحمل جماليات تصاميم المباني بمنطقة جدة التاريخية بالفسيفساء الطبيعي أو المصنع .

فرض البحث :-

المحافظة على هوية منطقة جدة التاريخية والمتمثل في تصاميم البيوت والمباني القديمة وواجهاتها الجمالية من خلال لوحات بالفسيفساء الطبيعي .

حدود البحث :

حد زماني .. من بداية ١٣٠٠هـ الى يومنا هذا .
حد مكاني .. منطقة جدة التاريخية المتمثل في تصاميم المباني العمرانية وجمالياتها .

مجموعة من تصاميم للمباني بمنطقة جدة التاريخية ..

(1) دار نصيف بجدةالتاريخية شكل

(2) دار البغدادي شكل

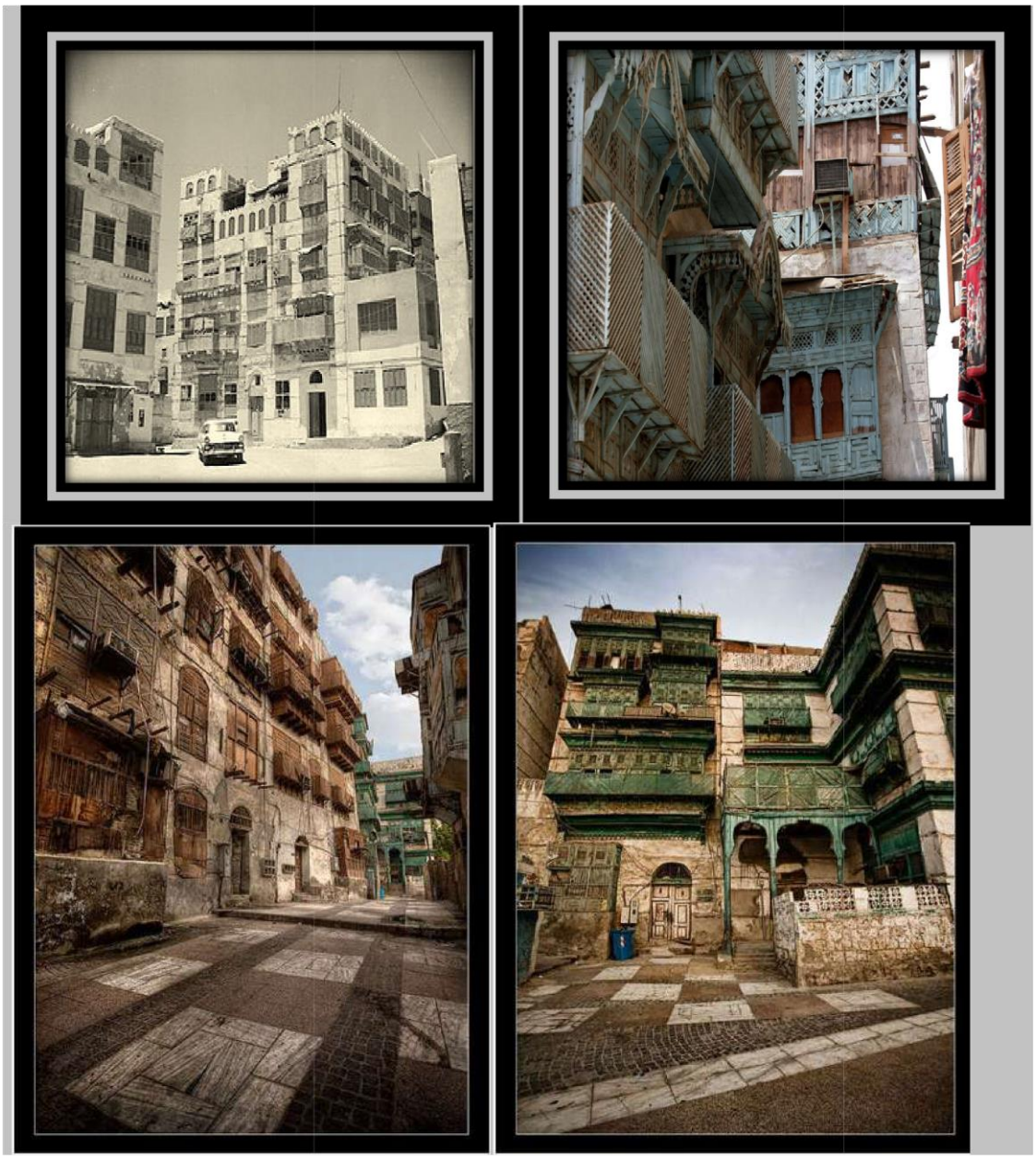

(3) أحدى تصاميم المباني بجدة التاريخية شكل

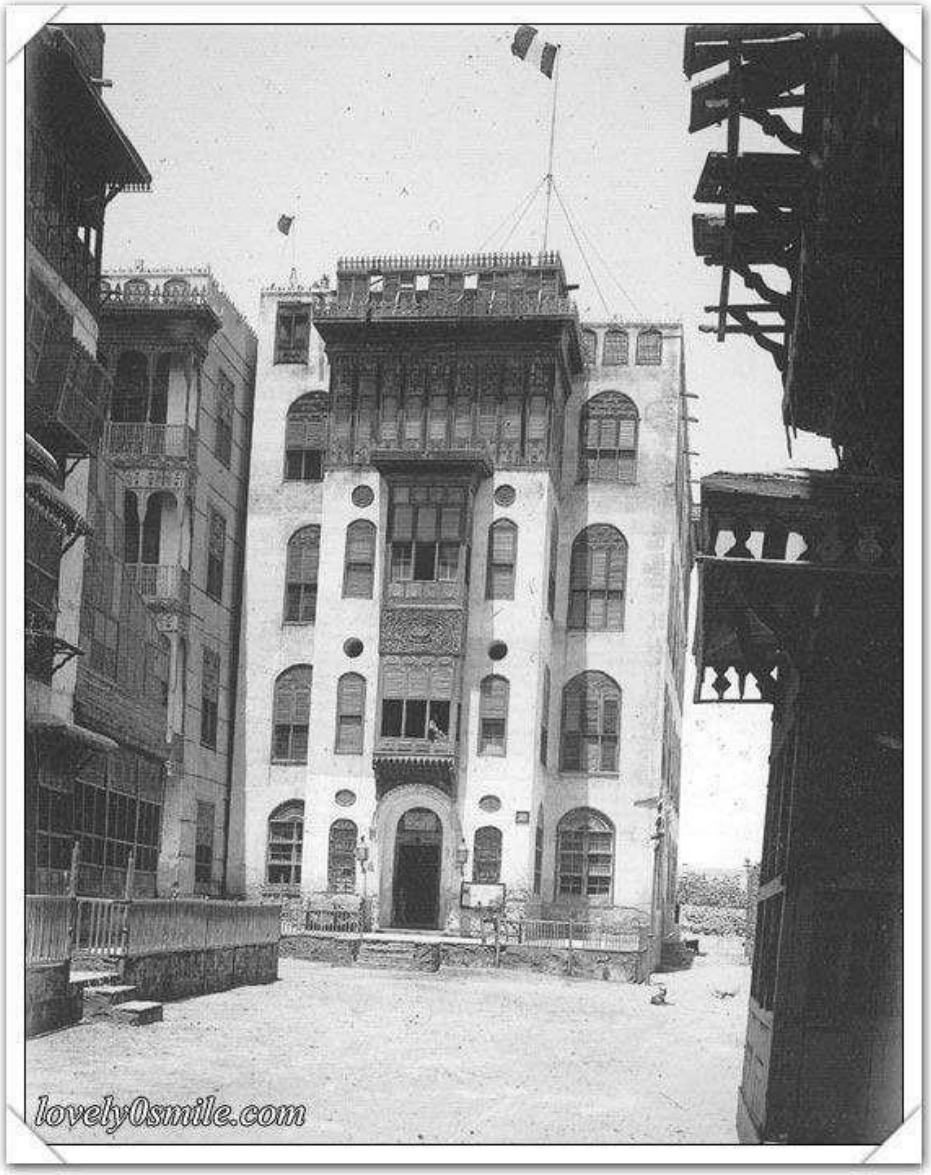

(4) شكل

ومما سبق وتم دراسته للمنطقة التاريخية بجدة قديماً لتصاميم الواجهات للمباني التاريخية وللوحدات الفنية الجمالية المتمثلة بالعمران التراثي بجدة قديما ، واختزال هذة العناصر والجماليات والأستفادة منها لعمل لوحات بخامات الفسيفساء الطبيعي والمصنع وذلك لتوثيق التراث ونشره محلياً وعالمياً ، وفي الشكل رقم (٥) يظهر لدينا عمل فني لمجموعة من الطالبات بعد دراستهم لتصميم المباني العمرانية بجدة التاريخية ومن ثم تم تصميم لوحه لواجهة مبنى تراثي جداوي عناصره تشمل تصميم المبني الخارجي وجلوس مجموعة من أهل جدة كعادتهم أمام المباني الخاصة بهم ،ويظهر في العمل جزء من الروشان بالجزء العلوي من العمل وكذلك الباب الخشبي بالزخارف الاسلامية ،كما

تظهر وحدة الأضاءة (الفانوس)،وجدران المبنى من طرفي العمل الفني ، تم انتاج العمل بخامة الفسيفساء الصناعي والطبيعي والأخشاب .

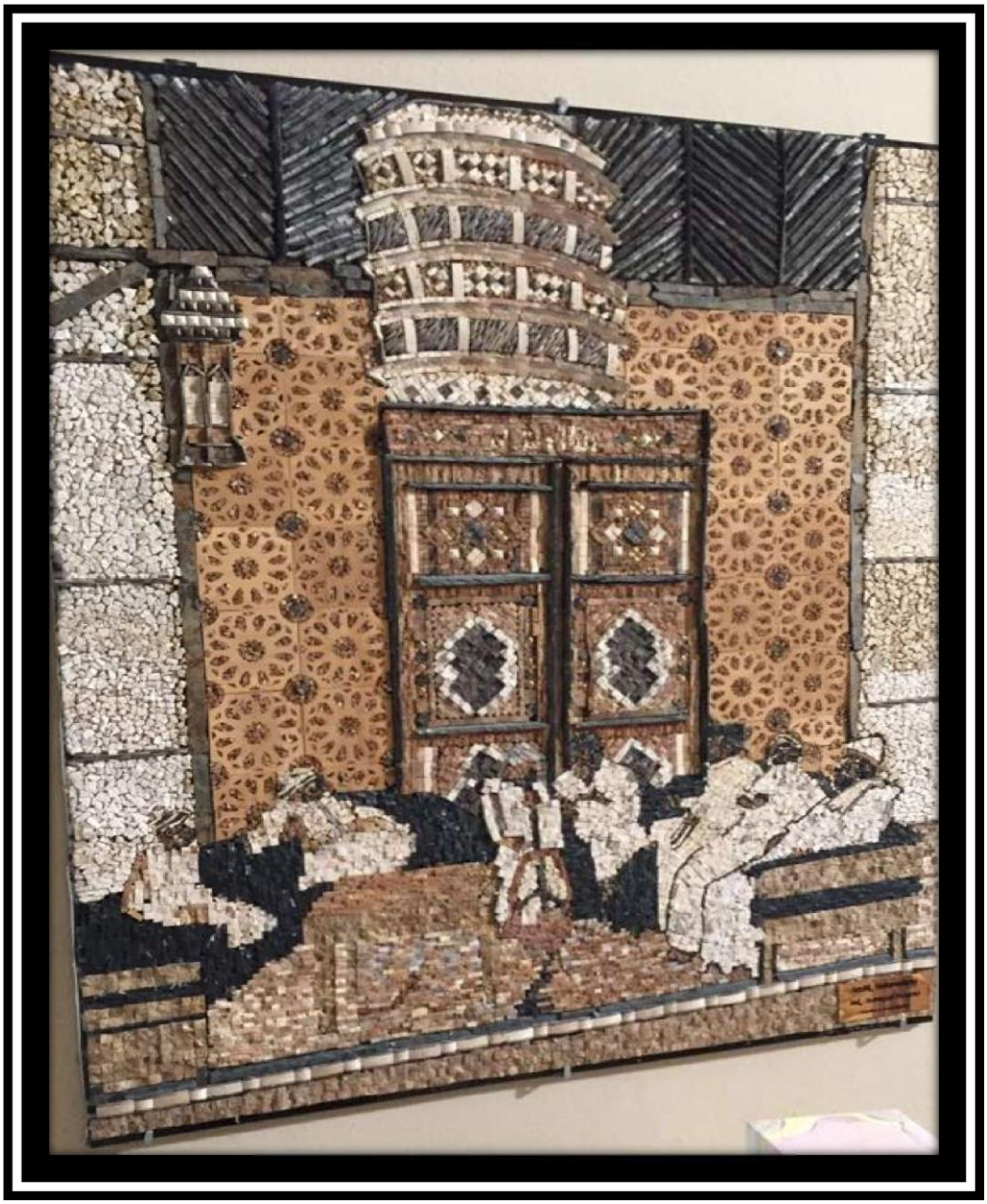

شكل (٥)تنفيذ مجموعة من الطالبات للدراسات العليا - مقاس العمل (٣*٢)

المراجع والمصادر:

١- الحضراوي، أحمد بن محمد: الجواهر المعدة في فضائل جُدة، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢- طرابلسي ، محمد يوسف محمد حسن كتاب جدة .. حكاية مدينة–الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م

3- إبن فهد، النجم عمر: اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمود شلتوت، الجزء الأول، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ،(١٤٠٣هـ).

4- الحمدان، فاطمة عبدالعزيز سليمان: مدينة جُدة -الموقع- البيئة- العمران- السكان- دار المجتمع- جُدة ،(١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

5- الأنصاري، عبدالقدوس: موسوعة تاريخ مدينة جُدة، الطبعة الثانية، دار مصر للطباعة، القاهرة ،(١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

6- أبو الحسن بن جبير... عقود من الترحال ـ مجلة الوعي الإسلامي ١٩٠٧م

6- البشاري ،المقدسي :احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مكتبة مدبولي الطبعة الثالثة ١٩٩١ م .

7- الطرابلسي ، محمد يوسف محمد حسن : تاب جدة .. حكاية مدينة–الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م